من حديث القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم

يلاحظ من يستقريء آيات الكتاب العزيز في حديثها عن محمد صلى الله عليه وسلم أنها في هذا الحديث تدور حول قطبين أساسين هما :

أ ـ بشرية الرسول .

ب ـ نبوته .

● أما بشرية الرسول فقد تحدثت عنها عدة آيات تنص على أن محمدا بشر كسائر البشر ، خلقه الله من أب وأم ، فليس ميلاده معجزة كعيسى مثلا ، وقد مات أبوه وهو ما زال جنينا في بطن أمه ، كما ماتت أمه وهو في نحو السادسة من عمره ، فهو يتيم المولد والنشأة ، وقد أومأت سورة الضحى إلى هذا في قوله تعالى : (**ألم يجدك يتميا فاوى**) آية ٦

ومن الآيات التي تنص على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى :

« **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** » (الكهف / ١١٠)

« **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** » فصلت / ٦

بشراً رسولاً

محمد مؤذن

للدكتور/محمد الدسوقي

ولما طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي لهم بمعجزات مادية ، لكي يؤمنوا به . بين القرآن أن هؤلاء قد ضلوا فيما طلبوا ، وغفلوا عن المعجزة الباقية الخالدة ، وهي هذه الآيات البينات التي تهدي للتي هي أقوم ، كما بين لهم أيضا أن المعجزات ليست من صنع الرسول ولا هي من شأنه ، وإنما هي أمر الله سبحانه وفق تقديره وحكمته ، وليس من شأن الرسول أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها ، لأنه بشر يقف عند حدود بشريته ، ويعمل وفق تكاليف رسالته ، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » الاسراء/ ٩٠ ـ ٩٣ .

وإذا كان القرآن الكريم قد أعلن ان محمدا لا يملك من أمر المعجزات شيئا ، وانه بشر لا قدرة له على الاتيان بأمر خارق للعادة ، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي يجري على يدي نبيه المعجزات ، وفق المشيئة الالهية فإن الكتاب العزيز قد أومأ في بعض آياته إلى طرف من اعراض البشرية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك كالغضب لله ، وضيق الصدر مما يقوله المشركون ، وحزنه لاعراض قومه عنه ، ورحمته بالمؤمنين ، وعدم توفيقه في بعض ما اجتهد فيه من الأحكام ونحو هذا .

ومن الآيات التي أشارت إلى تلك الاعراض قوله تعالى :

« إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون » الحجر/ ٩٥ ـ ٩٧ .

« فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » الكهف/ ٦ .

عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » التوبة/ ٤٣

وهذا التأكيد على بشرية الرسول له غايته التي يمكن تحديد معالمها في النقاط التالية :

اولا : إن محمدا خاتم الأنبياء ، وقد جاء بمنهج كامل للحياة الانسانية في مختلف مجالاتها ، وقوام هذا المنهج التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك خفي او جلي فكان الحديث عن بشرية الرسول على ذلك النحو الذي اومات اليه انفا مقاومة لكل محاولة تضفي عليه صفات غير بشرية مما قد ينجم عنه إفساد عقيدة التوحيد كما حدث بالنسبة لليهودية والنصرانية :

« وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » التوبة/ ٣٠ ، ٣١ .

ثانيا إن بشرية محمد تعني انه لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا ، حتى ولو كان اقرب الناس إليه كاهله وابنائه : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » الاعراف/ ١٨٨

فهو لا يملك لنفسه شيئا ، ومن باب أولى لا يملك لسواه ، وهو كسائر البشر لا يعلم غيبا ، ولو كان على علم به لاستكثر من الخير ، وما ناله سوء ، إنه نذير وبشير فحسب ، إنه بشر يوحى إليه ، وهذا يؤكد أن كل إنسان بما كسب رهين ، وأن أحدا لا يغني عن أحد شيئا ، وفي هذا حماية لعقيدة الوحدانية ، وإفراد الله بالطاعة والعبادة من اتخاذ الوسطاء مهما تكن منازلهم عند فاطر الأرض والسماء : **« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي**

وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » البقرة/١٨٦

ثالثا : وإذا استقر في الأذهان والمشاعر أن محمدا بشر فإن طاعته فيما يبلغ عن ربه لا علاقة لها بحياته أو موته ، لأن سنة الله ماضية في خلقه ، وهي عدم الخلود في هذه الحياة الدنيا : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون » الانبياء/٣٤

وتروي كتب السيرة أن المسلمين بعد وفاة نبيهم سيطر عليهم الحزن ، ولم يصدق بعضهم أن محمدا قد مات ، وكانت محنة ألمت بالمسلمين ، ولكن الصديق رضي الله عنه وقف خطيبا في الناس قائلا : (من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) **« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين »** آل عمران/١٤٤ .

وسكنت النفوس الحزينة ، وزايلها ما عصف بها من هواجس ، وايقنت أن محمدا أدى رسالته وبلغ أمانته ، ورحل كما يرحل كل بشر عن دار الفناء إلى دار البقاء ، وأن على الناس من بعده أن يعضوا بالنواجذ على ما تركهم عليه .

ويتأسس على هذا أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه لا تخضع لعامل الزمان والمكان ، بل طاعة في إطار المبادىء والتعاليم التي بعث بها هذا النبي الكريم ، وأن أي تغيير أو تحريف فيها يعد خروجا عن الصراط المستقيم الذي أمرنا القرآن باتباعه وحذرنا من اتباع غيره **« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »** الانعام/١٥٣

ولكن بشرية الرسول لا تعني أنه سواء وغيره من البشر في الفضائل والشمائل ، فقد اجتباه ربه لتبليغ آخر دعوة إلى الناس كافة ، ومن ثم أدبه فأحسن تأديبه ، وبعثه ليتمم به مكارم الأخلاق ، ومن كانت هذه رسالته فلابد أن يكون كاملا لا تعتريه شائبة من شوائب البشر الناقصة ، ولهذا يمكن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه بشر من حيث الجنس ، وفوق البشر من حيث المكارم والمحامد ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن نبيه : **« وإنك لعلى خلق عظيم »** القلم/٤ .

خلق شامل كامل ، خلق عظيم لا يدانيه خلق آخر ، ولا غرو أن كان هذا النبي الأمي أسوة وقدوة ومثلا أعلى لمن أراد نعيم الدنيا والآخرة .

هذا إجمال وإيجاز فيما يتعلق بطرف من حديث القرآن عن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم .

● وأما ما يتعلق بنبوة الرسول من آيات القرآن فبعضه يتحدث عن طرف من خلاله ، وبعضه الآخر يتناول خصائص رسالته .

إن محمدا صلى الله عليه وسلم عاش حياته قبل البعثة وبعدها لا يعرف القراءة والكتابة ، فهو أمي كما ورد في قوله تعالى : **« فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته »** الاعراف/١٥٨

وإذا كان وصف النبي بالأمي في هذه الآية وغيرها لا يدل دلالة قاطعة على عدم معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة والكتابة ، لأن كلمة أمي ذكرت جمعا في آيتين وردتا في سورتي آل عمران والجمعة ، وقصد بها العرب وغيرهم ممن لم ينزل لهم كتاب كما هو الشأن بالنسبة لليهود والنصارى - فإن في القرآن آية لم تنعت الرسول بالأمي ، بيد أنها تدل دلالة جلية على أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة ، وهي قوله تعالى : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** » العنكبوت/٤٨ فهذه الآية تنفي أن محمدا كان يقرأ أو يكتب قبل أن يوحى اليه ، ولو كان لا يجهل القراءة والكتابة لاتخذ أهل الباطل تلك المعرفة ذريعة لاثارة الشبهات والشكوك حول صدق محمد في نبوته وصحة دعوته .

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم عاش حياته كلها أميا فإنه لم يطلع قبل بعثته على أي كتاب سواء أكان منزلا من عند الله أم كان من تأليف بشر ، ومن ثم لا نسلم للمشركين مزاعمهم في أن محمدا كان يكتتب أساطير الأولين ، فهي تملي عليه بكرة وأصيلا ، كما لا تصح دعاوى المستشرقين في أن هذا النبي سمع من الأحبار والرهبان وأخذ من التوارة والانجيل ، وتأثر بالبيئة العربية ، ولفق من كل هذا كتابا ، وزعم بأنه وحي من لدن حكيم خبير .

إن حديث القرآن عن أمية الرسول ليس غاية في ذاته ، وإنما هو بعض وسائل الكتاب العزيز في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يقبل العقل أن إنسانا كمحمد في نشأته وأميته مهما تكن عبقريته يستطيع أن يقدم للبشرية كتابا كالقرآن أسلوبا ومضمونا ، اللهم إلا أن يكون رسولا أوحي إليه هذه المعجزة البيانية التشريعية الخالدة .

ومحمد الرسول الذى كان لا يعرف القراءة والكتابة ، ولم تكن له صلة بالأحبار والرهبان ونحوهم ممن لديهم أخبار عن الأمم السابقة بعثه الله رحمة للعالمين ، وهو من ثم يختلف في بعثته عن كل الأنبياء الذين خلوا من قبله ، فقد بعث كل منهم إلى قومه دون سواهم ، ولكن محمدا اصطفاه الله لحمل الرسالة العامة التي جاءت لكل إنسان في كل زمان ومكان : « **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » سبأ/٢٨

فهذه الآية نصت على أن رسالة محمد للناس قاطبة بيد أنها مع تقرير هذه الحقيقة في عبارة جازمة تستدرك في ختامها بأن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، ومن جهل شيئا عاداه . فأعداء عالمية الاسلام - كما تومىء الآية - كثر وهم بلامراء سيقاومون انتشاره :

« **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** » التوبة/٣٢

وهناك غير هذه الآية التي نصت على عموم رسالة محمد آيات كثيرة تخاطب الناس وتدعوهم إلى الايمان بدعوة هذا النبي وتبين أن كل مكلف مخاطب بهذه

الدعوة ، وأن من بلغته وأعرض عنها فإن له في هذه الحياة الدنيا معيشة ضنكا ، ويلقى يوم القيامة جزاء وفاقا ، فقد خاطبته آيات الله فأعرض عنها ولم يصغ اليها ونسيها فكان الجزاء العادل جهنم وبئس المصير .

ويترتب على عموم رسالة محمد ثلاثة أمور :

أولا : إن كل الرسالات السابقة على رسالة محمد دعوات مرحلية ، وقد نسخت بهذه الرسالة ، وأن من لم يؤمن بدعوة محمد ـ وقد هيمن كتابها الخالد على كل الكتب التي أنزلت من قبله ـ فهو خارج عن الاسلام ، وإن ادعى أنه يؤمن بالله وحده ، فالايمان المقبول الصحيح ينهض على دعامتين هي : (شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله) .

ثانيا : إن الايمان بعموم الرسالة المحمدية يقتضي وجوب الدعوة إليها ما استطاع المؤمنون بها إلى ذلك سبيلا ، حتى لا يكون أمام أي مكلف عذر في أن هذه الرسالة لم تبلغه ، وفي هذه الحالة لا يكون مسؤولا ، وانما يسأل من آمن بالاسلام وقصر في تبليغه .

إن كل من يؤمن بما جاء به محمد من عند ربه ، ويفقهه فقها سديدا مطالب إلى جانب التزامه الكامل بما آمن به أن يدعو غيره إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهو إن لم يفعل هذا فقد ترك واجبا مقدسا لا يقل في مسؤولية القيام به عن اداء الصلاة وإيتاء الزكاة ، وسائر الفروض والتشريعات .

وقضية الدعوة إلى الاسلام من القضايا التي ينبغي أن تدرس على مستوى الأمة دراسة تحرص أبلغ الحرص على تبليغ هذا الدين إلى كل إنسان ، ففي العالم الاسلامي الآن جمعيات ومنظمات متعددة للدعوة الاسلامية ، ولكن كل جمعية أو منظمة تعمل غالبا وفق المنظور السياسي والمذهبي للدولة التي تنفق عليها ، وهذا يحول دون تقديم الاسلام إلى غير المسلمين في صورة نقية من شوائب الأهواء السياسية والفكرية ، ويجعل هؤلاء لا يهشون إلى هذا الدين مع حاجتهم الماسة إليه ، لأن الدعاة المسلمين متفرقون شيعا وأحزابا ، وإن ذهبوا إلى أن الاسلام دين التوحيد والوحدة .

إن القضية مهمة وخطيرة ، ولا يصح أن تظل دون حل أو علاج ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » الحج/ ٤٠

ثالثا : إن عموم الرسالة الاسلامية يعني بالضرورة أن يكون محمد آخر رسول يوحى إليه ، فالعموم والصلاحية الدائمة للتطبيق وبقاء المعجزة محفوظة من التحريف والتبديل إلى يوم الدين يدل على أن هذا الرسول لا نبي بعده ، وأن ما أرسل به هو الشريعة الالهية للحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » الاحزاب/ ٤٠

ومادام محمد خاتم الأنبياء فإن كل من يدعي النبوة بعده فهو لا محالة كاذب ، وتجب مقاومته والقضاء عليه ، لأنه مفسد وضال ، ومن هادنه أو تركه وما يأفك به فهو شريك له في ذلك الافتراء والادعاء ، ولذلك حارب أبو بكر المرتدين وكان من بينهم من ادعى النبوة ؛ وأنقذ الاسلام من كذبهم والدين غض طري ، ولو لم يفعل الصديق هذا لتوقف مد الاسلام ولما استطاع أن يخرج من الجزيرة العربية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وطوعا لهذا ترفض كل الحركات التي زعم القائمون بها بأن محمدا ليس خاتما للأنبياء ، وأنهم بعثوا بدين جديد ، أو لتجديد دين الاسلام كما يدعون ، كتلك الحركات التي ظهرت في العصر الحديث ، وكان من ورائها قوى معادية للاسلام والمسلمين ، وفي مقدمة تلك الحركات البهائية والقاديانية .

كذلك ترفض تلك الاصوات التي تنادي بتلفيق دين جديد يجمع بين الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والاسلام ، بحجة أن ذلك وسيلة لانقاذ البشرية من حمى التعصب ، ووقف المذابح التي تحدث بين الناس ، بسبب هذا ..!

إن الاسلام دين التسامح ، ولا يكره أحدا على الايمان به ، وليس الجهاد فيه لحمل الناس على اعتناقه ، والتاريخ خير شاهد على تلك السماحة ، ولكن هذا الدين هو الذي تعرض قديما وحديثا للتعصب الارعن والحقد الأهوج ولأن الاسلام لا يعرف الاكراه في الايمان به . حدد القرآن الكريم مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمرين هما :

١ ـ البلاغ .
٢ ـ التبيين .

فأما التبليغ : فقد أمره الله تعالى في قوله سبحانه : « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** » المائدة/٦٧

« **إن عليك إلا البلاغ** » الشورى/٤٨ فكان صلى الله عليه وسلم يقرأ ما أوحي إليه على من حضر ، ويبعث من حفظته من يعلمه لمن يرغب ، وقد أقبل الصحابة رضي الله عنهم جادين على حفظ القرآن فكان منهم من يحفظ كل ما نزل ، ومنهم من يحفظ بعضه ، وكانت عنايتهم بالحفظ والتلقي أكثر من عنايتهم بالكتابة .

لقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة ربه ، وأدى الأمانة كاملة ، وتحمل في سبيل الله ما تحمل من العنت والأذى .

وأما البيان : فقد أمره الله به في قوله تعالى : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** » النحل/٤٤ وقوله سبحانه : « **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** » النحل/٦٤

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم بسنته العملية والقولية ما يحتاج من أحكام القرآن ومعانيه الى بيان ومن ثم أمر الله تعالى الناس بطاعة رسوله ، وجعل طاعته طاعة له « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » الحشر/٧

« **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » النساء/ ٨٠

إنه لا سبيل للعمل بالقرآن على غير المنهج الذي انتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم وبينه للناس ، ولذلك كانت السنة النبوية مع القرآن أشبه ما تكون بالمذكرة التفسيرية للقانون ، توضح قواعده ومقاصده ، وتعين على تطبيق أصوله ومبادئه .

ولأن مهمة الرسول لا تتجاوز هذين الأمرين بينت بعض الآيات أن أمر الهداية مرده إلى الله ، وأن الرسول لا يملك منه شيئًا « **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** » القصص/ ٥٦ كما أنه لا سلطان له على أي إنسان ، ولم يبعث جبارا وقهارا ، وإنما بعث بشيرا ونذيرا « **فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر** » الغاشية/ ٢١ ، ٢٢ . وأنه كغيره من الأنبياء لا يدري ما يفعل به ولا بقومه ، وهو محكوم باتباع ما يوحى إليه « **قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي** » الاحقاف/ ٩

وأشارت بعض الآيات إلى أن الكافرين طلبوا من الرسول أن يأتي لهم بقرآن غير ما يتلوه عليهم ، ثم بينت أنه لا يملك هذا ، إنه يتبع ولا يبتدع ، فإن تجاوز حدود الاتباع فقد عصى خالقه ، وعرض نفسه لعذاب يوم عظيم « **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** » يونس/ ١٥

وبعد فإن حديث القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم متعدد الجوانب ، وإن كانت لا تخرج عن نطاق بشريته ونبوته . لقد اصطفاه الله من خلقه ، وبعثه للناس كافة ، وختم ببعثته وحي السماء إلى الأرض ، وكانت مهمته في دعوته لا تتجاوز التبليغ والبيان ، وقد سجل الكتاب العزيز للرسول شعوره الجياش بالمسؤولية نحو دينه وقومه ، شعور الحرص البالغ على نشر نور الله بين الناس ، وانقاذ قومه من ضلال الوثنية وظلام الجاهلية ، ومن ثم صبر على ما كان منهم من عنت واضطهاد ، وكان يسأل الله لهم دائما الهداية والمغفرة ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن نبيه : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » التوبة/ ١٢٨ ، ١٢٩ .